IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الأكاديمية العلمية
مجلة كلية الكوت الجامعة للعلوم الإنسانية
ISSN (E): 2707 – 5648 II ISSN (P): 2707 – 563x
www.kutcollegejournal1.alkutcollege.edu.iq
k.u.c.j.hum@alkutcollege.edu.iq
عدد خاص لبحوث المؤتمر العلمي الدولي الخامس للإبداع والابتكار للمدة من 13 - 14 كانون الأول 2023

لُغَةُ الْقُرْآنِ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ الْعُرْفِيَّةِ وَالْمَنْهَجِيَّة الْخَاصَّةَ فِي فَهْمِ الْبِنْيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ

م.م مصطفى حسين عبد الرسول [1]

المستخلص

يقع البحث في هذه المجال من طرح تساؤلات مهمة ينبغي دراستها للوقوف على نظرية في تخاطب القرآن مع الناس، ومن هنا يمكن القول هل أن القرآن الكريم استخدم لغة عرفية؟ بمعنى هل استخدم لغة الناس كطريقة لتفهيم مقاصده أو لدى القرآن لغة تتعالى وتتخطى لغة عرف الناس؟ هل في القرآن ظاهر _دلالة واضحة_ يفهمها العرق كما يفهم العرف أي كلام؟ هل أستطيع أن أتعامل مع النص القرآني بواسطة التحليل اللغوي والأدبي كما أتعامل مع أي نص أدبي آخر، أو وراء هذا الذي يتراءى لي، أو يظهر لي يوجد شيء آخر باطن عميق غير مفهوم لا يمكن أن يطلّ عليه الإنسان من خلال نظام اللغة التي يستخدمها البشر، وإنما يطلّون عليه من نطاق خارج نطاق اللغة المتعارفة.

الكلمات المفتاحية : اللغة العرفية، الاتجاه الرمزي، الاتجاه الباطني، الاتجاه التلفيقي، لغة القرآن

انتساب الباحث
[1] كلية العلوم الاسلامية، جامعة كربلاء، العراق، كربلاء، 56001

[1] mustafa.hussein@uokerbala.edu.iq

[1] **المؤلف المراسل**

معلومات البحث
تاريخ النشر: حزيران 2024

The Language of the Qur'an is between the Customary Theory and the Special Methodology in Understanding the Quranic Structure

M. M. mustafa hussein abd al rassol [1]

Affiliation of Author
[1] College Islamic sciences, University of kerbala, Iraq, Baghdad, 56001

[1] mustafa.hussein@uokerbala.edu.iq

[1] **Corresponding Author**

Abstract

The research falls in this area of raising important questions that should be studied to find out a theory in the communication of the Qur'an with people, and from here it can be said whether the Holy Qur'an used a customary language In other words, did he use the language of the people as a way to understand his intentions, or does the Qur'an have a language that transcends the language of the people's knowledge Is there a clear sign in the Qur'an that race understands as well as custom understands any speech Can I deal with the Quranic Text by linguistic and literary analysis as I deal with any other literary text, or behind this one that seems to me, or does it show me that there is something else deep inside that is incomprehensible that a person cannot see through the system of language used by humans, but they look at it from an outside scope The common language.

Keywords: Customary Language, Symbolic direction, Esoteric direction, Synthetic direction, Quran language

Paper Info.
Published: June 2024

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اِنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مَنِ اِصْطَفَاهُ بِالرِّسَالَةِ، وَحَفَّهُ بِالشَّهَادَةِ، سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدَ بْن عَبْدَاللَّهِ وَعَلَى آله وَصَحِبَهُ المنتجبيّن.

وَبَعْدَ...

فَإِنَّ اللهَ تَعَهُّدٍ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ، وَمِنْ مصاديق حَفِظَهُ أَنَّ جَعَلَ عُلَمَاءُ اِعْتَنَوْا بِهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ قَارِئِينَ حَافِظِينَ مُتَدَبِّرِينَ مُفَسِّرِينَ، لِيَأْخُذُوا بَيْدَ الْأُمَّةِ إِلَى مِنْهَجِ اللهِ وَرِضْوَانِهُ وَمَا يُحَقِّقُ سَعَادَتُهَا.

وَتَفْسِيرُهُ يَقْتَضِي مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْعَمَلَ عَلَى إيضاح كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقُرْآنِ مِنْ عُلُومٍ وَمَعَارِفِ، بِحَيْثُ يَقِفُ الْمُسْلِمُونَ أَمَامَ مَكْتَبَةٍ قُرْآنِيَّةٍ هِيَ أَكْبَرُ مَكْتَبَةٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَحَتَّى فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، فَاللهَ تَعَالَى فَضْلُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَزَايَا كَثِيرَةٍ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى تَمْنَحُ الْمُسْلِمُ مَا لَا يَمْنَحُهُ للآخرين، وَإِنَّ أَهُمْ هَذِهِ النِّعَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ دُسْتُورُهُمْ ؛ لِأَنَّهُ نُزُلٌ عَلَى الصَّفْوَةِ مِنَ الْخَلْقِ(عَلَيْهِمُ السَّلَامَ)، وَحَتَّى الْآنَ يَعْتَبِرُ الْمَصْدَرُ الْخَالِصُ لِلْخَيْرِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، مِمَّا يَجْعَلُهُمْ أَغْنِيَاءُ بِالنُّورِ وَالْمَعْرِفَةِ وَفَيْضِ عطَائِه، فَقَدِ اِعْتَرَفَ

بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ حَتَّى مَنْ أَنْكَرَ سَمَاوِيَّتَهُ وَإِعْجَازَهُ لِيُؤَمِّنُ بِطَبِيعَتِهِ حَتَّى عَنْ بَعْدَ.

وَلَعَلَّ الْبَحْثَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ أَشْرَفِ الْبُحوثِ ؛ لِأَنَّ مَصْدَرَهُ سَمَاوِيٌّ وَلَمْ يَعْتَرِيهِ أَيُّ تَحْرِيفٍ، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ كِتَابَ هِدَايَةٍ وَصُلَاَّحٍ لَمَّا عَلَيْهِ الْأُمَّةَ مِنْ إنحرافات، وَالْمُهُمْ فِي الْمَقَامِ أَنَّهُ أُنْزِلُ فِي بُيُوتِ طَاهِرَةِ مَطْهَرَةٍ عَلَى لِسَانِهِمْ يُفْهِمُ مَعَانِيُهُ ؛ لِأَنَّهُمْ مَنْ خُوطِبَ بِهُمِ الْقُرْآنُ، فَالْحَمْلَ عَلَى عَاتِقِ النَّبِيِّ(ص) وَالتَّخْلِيفَ إِلَى أَئِمَّةِ مَيَامِينِ مَعْصُومِينَ، فَكَانُوَا(عَلَيْهُمِ السُّلَّامَ) تَرْجُمَانِ الْقُرْآنُ.

وَالْعُلُومِ تَتَّبِعُ فِي الشَّرَفِ شَرَفَ مَوْضُوعِهَا، لَذَّكَ تُعَدْ عُلُومُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ وَلَهَا قَصَبُ السَّبْقِ فِي الدَّرْسِ وَالتَّأْلِيفِ، وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ يَعْتَبِرُ عِلْمُ التَّفْسِيرِ" الَّذِي يُعْنَى بِفَتْحِ شَفْرَتِهَا" عَلَى رَأْسِهَا؛ وَذَلِكَ كَوْنُهُ نَاضِرًا إِلَى حَقِيقَةِ الْكَشْفِ وَالْبَيَانِ عَنْ مُرَادِ الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ؛ وَمِنْ بَابِ الْمَسْؤُولِيَّةِ الْكُبْرَى تَصْدَى عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِبَيَانِ مَا جَاءَ بِهِ ذَلِكَ الْخِطَابُ الْمُقَدَّسُ، **ويَقُعُ** الْبَحْثُ فِي هَذِهِ الْمَجَالِ مِنْ طَرْحِ تَسَاؤُلَاتِ مُهِمَّةٍ يَنْبَغِي دِرَاسَتُهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى نَظَرِيَّةٍ فِي تَخَاطُبِ الْقُرْآنِ مَعَ النَّاسِ، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ هَلْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اِسْتَخْدَمَ لُغَةُ عُرْفِيَّةُ ؟ بِمُعَنًّى هَلِ اِسْتَخْدَمَ لُغَةُ النَّاسِ كَطَرِيقَةٍ لِتَفْهِيمِ مَقَاصِدِهِ أَوْ لَدَى الْقُرْآنِ لُغَةً تَتَعَالَى وَتَتَخَطَّى لُغَةُ عُرْفِ النَّاسِ؟

وجاءت خطة البحث على مبحثين الأول منها: مَفْهُومُ اللُّغَةِ الْعُرْفِيَّةِ وخصائصها، والمبحث الثاني أَهُمِ الإتجاهات الَّتِي تُؤَمِّنُ بتخطِي اللُّغَةَ الْعُرْفِيَّةَ إِلَى أُفُقْ آخِرَ.

وذيل البحث بخاتمة فيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

مَدْخَلٌ.

ينطلق الباحث من التساؤل الآتي في رسم ملامح البحث، هل يعتمد القرآن لغة غامضة لا توضح مراده تتركه مفتوحا على احتمالات، أو أنه يستخدم لغة بيانية إيضاحية توصل الرسالة التي يريدها للناس، بمعنى هل تعمد إغلاق النص بحيث يجعله مبهماً لسبب ما يريده من وراء هذا الإبهام أو لا؟، أو هل القرآن أراد القرآن أن يعطي أحداً آخر دوراً لذلك أغلق نفسه ووضع نفسه داخل شرنقة معقدة جداً، حيث لا يستطيع الانسان بأنظمة اللغة أن يفك هذه الشفرة القرآني، يحتاج شيء أعلى من ذلك أو لا؟.

تحديد لغة القرآن بحث جوهري بمعنى عن أي نسق من اللغة استخدم، أي نوع من اللغة، أي نوع من أداة التخاطب، هذا يساعد كثيراً في فهم بنية القرآن الكريم، فعندما تريد أن تتفاهم مع أي شخص آخر عبر الكلام تريد أن تفهمه أنت بحاجة إلى فهم اللغة التي يعتمدها، أو بحاجة لفهم الوسيط الناقل للذي يعتمده، أو أي لغة لفهم المقاصد والمعاني، هكذا لو كانت اللغة الإشارة مثل لغة الجسد التي تستخدم في بعض المسرحيات والفنون.

إذاً عليك أن تفهم اللغة كي تفهم تفسيراتها وتفهم معانيها، ما هو معجمها إذا صح التعبير؟ كذلك لو يستخدم شخص لغة علمية اكاديمية كعلم الفيزياء والرياضيات عليَّ أن أفهم قواعد اللغة، قواعد المصطلحات، طرائق التعبير، على عكس أي شخص يعتمد القواعد الأدبية، اللغة الشعرية، الدلالات تختلف طرائق التعبير تختلف، المعاني تختلف تبعاً لإختلاف أنظمة التفاهم والتفهيم، كل شيء يتمايز تمايزاً جذرياً هنا، فكل لغة تعبّر عن العقل، وتعبر عن التفكير.

عندما نرجع إلى الوراء عند المفسرين المدرسيّين يتبيّن أنهم يعتمدون اللغة العربية بما هي نظام دلالي عقلائي عرفي، يرجعون إلى قوانينها كما كانت تفهمه العرب، قوانين اللغة في التفاهم، ويتعاملون معها بوصفها الأساس التي تقوم عليه عملية تفسير النص القرآني، وهذا يعطي دلالة أنهم يعتبرون أن لغة النص القرآني هي لغة عرف، كما يتكلم شخص مع شخص آخر بين العرب فيفهم كلامه على تلك الطريقة، إذ القرآن الكريم أيضاً عربي واستخدم نفس الطريقة التي استخدموها، هكذا يبدو أن جمهور الأنشطة المدرسة التفسيرية يتعاملون مع تفسير النص القرآني[1].

ومن هنا ظهرت وجه نظر تعتبر أنه من الممكن أن يحمل القرآن الكريم لأكثر من نظام لغوي، أو لأكثر من نظام نواقل للأفكار والمعاني، فممكن أن يكون عنده نظام عرفي يعتمد اللغة العربية، وممكن عنده خلف الستار نظام آخر لا يعتمد هذا الشيء المتعارف الذي يعتمده الناس في فهم نصوصهم اللغوية، بمعنى فيه شيء آخر لا يفهمه إلا الأوحدين من الناس، كما في التفاسير الاجتهادية[2].

قِرَاءةٌ لِلنَّظَرِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالْعُرْفِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

إن النزعات الصوفية والعرفانية والفلسفية، والنزعات الباطنية المذهبية مثل الاسماعيلية والغلاة، ومن جهة أخرى عدد غير قليل من التراث التفسيري الروائي عن الشيعة الإمامية، هذه الحالة لهذه التفاسير من وجه أنصار اللغة العرفية العامة العقلائية تعتبر مبنية على تأولات تمزق بناء النص القرآني، أو تهدر حرمة لغة القرآن وتشضي القرآن، بمعنى أن الأشخاص الذين يؤمنون بفكرة اللغة القرآنية العرفية العقلائية أن القرآن لم يجيء بلغة أخرى، إنما هي لغة العرب وطرائق نقلهم، وأحدث تطورات فيها مثل أي تطور

داخل اللغة يحص، ولكن القرآن الكريم لم يتكلم بلغة أخرى ولم يذهي إلى مكان آخر غي هذا النظام اللغوي الذي تعارف عليه البشر، فهذه المحاولة جاءت من بعض التيارات الفلسفية الصوفية الباطنية المذهبية.

وأرادوا بقولهم أن يتخطوا أنظمة اللغة؛ لأنهم أدركوا أن لغة القرآن إذا كانت لغة عرفية لا تستجيب لهم، ولا تحقق أغراضهم، ولا تخرج الأفكار التي يريدونها، ولا تسعفهم اللغة في استنتاج تلك المقولات، "فقاموا بالالتفاف على لغة القرآن وشرعوا بتأويل المتحرر من قواعد اللغة، وهنا لابد أن نفرق بين التأويل الذي يخضع لأنظمة لغوية مثل التأويل المعتزلي"[3]، وكثير من متكلمي الشيعة والزيدية، فهذا التأويل يخضع لقواعد اللغة ويبين القواعد اللغوية، فلا يتكلم البحث عن التأويلات التي تقدم نفسها وفقاً للنظرية اللغوية، وإنما تأويلات قال عنها أنصار اللغة العقلائية والعرفية أنها تأويلات تحررت من قواعد اللغة، وأعتبروا أن لغة القرآن لغة خاصة، وهذا الذي يُقرأ هو السطح الظاهر، فتصورون أنكم تفهمون شيئا، ففي القرآن توجد لغة رمزيتها واشاراتها وطلاسمها لا يفهمها إلا العرفاء الكبار الخواص الذين يتصلون بالنسخة المعنوية للقرآن في عالم المثال، أو لا يفهمها إلا أهل البيت (عليهم السلام) الذين خوطبوا بالقرآن وما شابه ذلك.

ويعتبرون المدارس الصوفية والمذهبية والباطنية هي في الحقيقة إجهاز على نظام اللغة القرآنية، وتحرير أنفسهم من أنظمة اللغة العامة بهدف تحصيل ما يريدون، وتحرير أيدلوجيات وتأويلات غير قادرة أن تدافع عن نفسها وفق أنظمة القرآن الكريم اللغوية المتعارفة، وهذا الخلاف وقع في شقين هما:

أ. منهم من ينتصر للدلالة اللغوية وفهمها.

ب. فريق ينتصر لفتح مساحات في قراءة النص القرآني.

والفريق الأخير يؤمن بوجود أنظمة لغوية للقرآن وليس فقط تفسير القرآن باللغة العرفية كما يفعله الفقهاء[4]، واعتبروا من قال باللغة العرفية العامة –وهم أصحاب الرأي الأول- أنه فريق جامد، جمد على اللغة العرفية ونزعته نوع من النزعة الظاهرية الحرفية في فهم كتاب والسنة، هي نزعة إنغلاقية داخل اللغة الشعبية والتي تمثل مستوى أولي من مستويات الدلالة القرآنية، وإنما القرآن مفتوح على علوم لا تتناهى لا تستطيع لغة بسيطة مثل هذه اللغات التي يستخدمها البشر العاديين، فاللغة تعبير عن العقل، والعقل محدود، إذ لابد من جود نظام لغوي آخر، وفي الأقوال المتقدمة هناك تجاذب حول المنهج؛ لأن المنهج مبني على طبيعة النواقل التي يستخدمها النص، فيوصل رسائله إلى المتلقي، وهذه النقطة هي الدافع للبحث حول الموضوع أو الكشف عن بعض زوايه على الأقل.

الْمَبحث الْأَوَّل: مَفْهُومُ اللُّغَةِ الْعُرْفِيَّةِ وخصائصها:

الحقيقة العرفية : "هي اللفظ المستعمل فيما وضع له في العرف أي أن يكون الاسم قد وضع لمعنى عام ثم خصص بالعرف ببعض مسمياته"[5].

مثل الدابة وضعت لغةً لكل ما دب ثم خصص عرفاً بذوات الأربع وسببه إما سرعة دبيبه أو كثرة مشاهدته أو كثرة استعماله وهذا من استعمال أهل العرف العام، فهذا الاستعمال عند عامة الناس فمعناه العرفي أخص من معناه اللغوي.

ويفهم من ذلك أن اللغة العرفية تلك اللغة التي يستخدمها عامة الناس للتعبير عن مقاصدهم، والتعبير عن مراداتهم، ويقولون أن القرآن والسنة جاء وفق اللغة العرفية، بمعنى خاطب الناس بنفس اللغة الاجتماعية العامة التي يخاطب الناس بعضهم بعضاً بها، وليس هنا استخدام للغة مختلفة، وليس هناك استخدام للغة خواص، والمرجع هو اللغة العربية بمنظومتها الهائلة في البيان والتبيّن، والتفاهم والتفهيم.

وهناك مجموعة خصائص لهذه اللغة كالآتي:

1. لغة القرآن لغة مفهومة نوعاً ما؛ لأن أبرز خواص اللغة العرفية هو الموضوع في التعبير عن المقاصد، واللغة جاءت لكي تنقل التعبير وتعرب عمّا في داخلك، فاللغة العرفية ليس فيها ترميزات، ولا تتكلم بطريقة لا يفهمها الجمهور.
2. لغة القرآن تحظى بقدر من التنوع البياني، فلا يُقصد منها أنها لغة جامدة ، وإنما لغة في مفرداتها تراكيب واصطلاحات وأساليب وأمثال وتشبيهات واستعارات ومجازات، وهي لغة البيئة النبوية وإنها مألوفة ومفهومة ألفة وفهمت من أهلها[6]، فلا تعني اللغة العرفية أن الألفاظ ليس فيها مجاز أو تشبيه أو استعارة وغيرها، وكل هذا موجود ما دام لديها قدرة الفهم نوعاً وليست مبتكرة، إذ عنصر الفهم موجود في كل هذه الطرائق اللغوية، فالنظام اللغوي نظام هائل ونجاحه في اللغة العربية، فلا يُقصد منها اللغة الحرفية السطحية الضيقة، بل يُقصد اللغة الغنية بالثراء الدلالي الرفيع في الأساليب التعبيرية.
3. لغة القرآن غير ابتكارية هي لغة تم استنساخها من اللسان البشري، أُعيد تطبيقها على لغة الوحي سواء في الكتاب أم في

السنة، ولكي أتعامل معها يمكنني أن استنسخ طريقة التعامل مع لغة البشر، فأتعامل بها مع لغة القرآن، فهي نفس اللغة. إذاً هي ليست لغة جاءت من عدم، وإنما هي نسخة قد تكون مطورة، ولا مشكلة في ذلك، لكن نسخة من الطرائق المتعارفة في التعبير الموجودة بين البشر، يقول السيد الخوئي: "لا شك أن النبي صلى الله عليه وآله لم يخترع لنفسه طريقة خاصة لإفهام مقاصده، وأنه كلم قومه بما ألفوه من طرائق التفهيم والتكلم وأنه أتى بالقرآن ليفهموا معانيه ، وليتدبروا آياته فيأتمروا بأوامره ، ويزدجروا بزواجره"[7]، فهي لغة مفهومة نوعاً، فضلاً عن كونها لغة غير مبتكرة، وإنما نسخة قد تكون مطورة.

4. لا تعني لغة اللغة العرفية أن المضمون سطحي، فهذه واحدة من الأخطاء الشائعة، فعرفية اللغة شيء وعمق الوحدة الذي تحمله اللغة شيء آخر، لذلك من يرى "أن اللغة ليست اعتباطية الدلالة لا في نظامها ولا في تعاقبها، بل الاعتباطية هي في تفسيرها، فالاعتباط سمة الذين يتعاملون مع اللغة تحقيقا لمآربهم الذاتية وليس سمة في اللغة ذاتها"[8]، فهذين المفهومين منفصلين تماماً، فلا تستدعي عرفية اللغة _لغة الناس_ سطحية المحتوى، ولا يوجد تلازم بين هاتين الفكرتين، فكم من فكرة عميقة عالية استخدمت فيها اللغة العرفية، وكلامهم في مقام الحديث عن النواقل لا عن المنقول، فالمنقول قد يكون عميقاً عالياً متسامياً، أما النواقل تكون على قواعد الناس في التفهيم والتفاهم.

5. عرفية اللغة تعني أن المخاطب أولاً وبالذات عامة الناس، فالقرآن لم يأت بلغة نخبة لكبار الفلاسفة ولا العرفاء، وإنما جاء لجمهور الناس، إذ في قوله تعالى: "يا أيّها الناس ، يا أيّها الذين آمنوا ، يا أهل الكتاب ، يا بني آدم ، يا عبادي الذين آمنوا ، يوصيكم في أولادكم، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المشتملة على الخطاب لعامّة المكلفين، أو المصدّرة بذكر المخاطب المستفاد منها كونها خطابا منه سبحانه لهم ، أو لصنف منهم المستلزم لفهمهم تلك الخطابات من دون واسطة"[9]، فقد تكلم القرآن بلغة طبعها الأولي المستهدف فيها جمهور الناس، وشرائح واسعة من المجتمع، وهذه تؤثر كبيراً على ضبط إيقاع هذه اللغة، ويجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار هذه الخاصية.

6. لا تنحصر اللغة العرفية بالقرآن الكريم في آيات الأحكام كما يتصور البعض، فتركيبة القرآن اللغوية والبيانية لا تقتصر بآيات الأحكام وغيرها، فالقرآن بنية واحدة ولغة واحدة (نسق واحد)، وهذا لا يعني أن لغة القرآن مقسمة إلى موضوع فقهي تشتغل عليه اللغة، وموضوع كلامي لا تشتغل عليه اللغة ويتحول إلى لغة أخرى، واختراع لغة يحتاج إلى دليل ولا يوجد دليل على ذلك.

7. اللغة العرفية مبنية على التساهل والتسامح وليست على الدقة، فعند قولك: لا أريد أن التقي محمد أبدا، ولكن بعد يومين إذا توفى والده وقيل لك: هل تريد أن تلتقي به؟ تقول نعم، أنا أريد أن التقي به إذا توفي والده، فالعرف هنا يتساهل، بينما إذا صدرت من فيلسوف بقوله: لا يكون المعلول من دون علة أبدا، فأبدا عند الفيلسوف لها معنى، فإذا انخرمت انهارت الجملة، كذلك المهندس والرياضي على نفس الطريقة، فهذه أنظمة غير الأنظمة العرفية التي فيها تسامح وتساهل، قد يطلق فيها شيء ويريد شيء آخر.

وهنا يرد تساؤل جوهري كيف نفترض وجود تساهل وتسامح في النص القرآني والمتكلم هو الله أو رسول الله (ص)؟

والإجابة عن التساؤل عند أصحاب العرفية أن عرفية اللغة لا تعني هذا الشيء، بل تعني أن الله دقيق في تعابيره، لكن عندما يحكي عن مفاداته يحكيها بلغة عرفية، إذ السير نحو اللغة العرفية يعني أن المولى يمكنه إطلاق النص ويريد الأعم الأغلب، ولا يريد كل شيء إلا أن يعطي إضافة[10].

ولا يمكن تصور أن القول باللغة العرفية أن القرآن الكريم يتكلم بكلام غير دقيق في تعابيره، غاية الأمر أن الموجبة الكلية تعطي الأعم الأغلب.

إذاً القرآن الكريم يستخدم الموجبة الكلية، وإذا أراد أوسع من الأعم الأغلب يضيف إشارة دلالية في النص.

8. لا تعني اللغة العرفية أن الوسيلة الوحيدة لفهم كلام المتكلم هي قواميس اللغة والمراجع الأدبية والمعجمية، فهذا اشتباه واضح في فهم نظرية عرفية النص القرآني التي تبنتها المدارس النقلية في التراث الاسلامي، فهذا تبسيط للمنهج، فليس هذا هو اللغة العرفية التي نبحث فيها، فدراسة نظم التفاهم والتعبير بين البشر تؤكد أن عناصر الفهم لا تقوم فقط على الترجمة المعجمية للكلام الصادر من المتكلم، بل هناك منظومة حافة بالكلام كلها تساعد في إيصال المتكلم رسالته للسامع، وفي فهم السامع رسالة المتكلم، فالقرائن والشواهد الحافة بالنص، المقالية، المقامية، السياقية، الحالية، الزمكانية، كل هذه يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، إذ تُعد المفردات واحدة

من المعطيات التي تقدم لي العون، فعندما تقول لغة عرفية، ومنهج فهم عرفي يعني الأخذ بعين الاعتبار كل هذه العناصر من التاريخ والسياقات، والأعراف، والنسب التداولية، والمعاجم وغيرها، لذلك النظام العرفي اللغوي هو نظام مفتوح وليس ضيق كما يتصور البعض.

9. لا تعني اللغة العرفية أن جميع الناس سوف يفهمون كل مرادات القرآن دفعة واحدة بمجرد أن يسمعوا[11]، فمثلا عندما ينزل من القرآن شيء ويلقى على مرآى ومسمع قريش، تفهمه قريش لكن لا يدعى أن قريش تفهم كل الدلالات، بمعنى أنه درجة من الدلالات تفهمها ودرجة تحتاج إلى شغل، ولكن هذا الشغل لا يعني أنه خارج نطاق اللغة، بمعنى أن النص يحتاج إلى مقارنة مع نص آخر، أو إلى تكميل الصورة النهائية للمعنى، أو مقاربة نص مع نص آخر، أو رصد التركيبات، كل هذا يعطي نتائج جديدة، لكن كل هذه النتائج تخضع لعمليات لغوية وتحليلية، وليست خارجة عن نطاق الفهم والتفهيم البشري المتعارف، فأنصار اللغة العرفية جداً منحازون إلى فكرة الانفتاح على اكتشاف معطيات دلالية في النص، ولكن تبقى خاضعة لقواعد التفاهم والتفهيم البشري مادامت اللغة وأنظمة التعبير البشري تسمح بذلك.

من خلال ما تقدم من نقاط يفهم الباحث أن معنى اللغة العرفية هي لغة واضحة نوعاً، لغة غير مبتكرة، مع إمكان كونها متطورة غير جامدة، لغة مفتوحة على أنظمة أشكال من التعبير والفهم.

الْمَطْلَبُ الأول: الْأَدِلَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ عِنْدَ أَصْحَابِ نَظَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعُرْفِيَّةِ.

يمكن القول بأن القرآن أستخدم لغة البشر في إيصال المعنى لهم، وهذا معتمد على الأدلة الآتية:

أولا: الأدلة القرآنية

1. "هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وهُدىً ومَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ"[12].

"كيف يجوز أن يصفه بأنه عربي مبين ، وأنه بلسان قومه ، وأنه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شئ ؟ وهل ذلك إلا وصف له باللغز والمعمى الذي لا يفهم المراد به إلا بعد تفسيره وبيانه ؟ وذلك منزه عن القرآن وقد مدح الله أقواما على استخراج معاني القرآن فقال : " لعلمه الذين يستنبطونه منهم "[13]، وقال في قوم يذمهم حيث لم يتدبروا القرآن، ولم يتفكروا في معانيه : "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"[14] "[15].

إن الظاهر من الناس مطلق الناس، فكيف يكون للناس ويستخدم لغة غير لغة الناس، إذ ظاهر البيانية بيانية عامة الناس، فإذا كان القرآن رموز وطلاسم بطل مفاد هذه الآية القرآنية.

2. "ولَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"[16].

وفي تفسير الآية قيل: "أي بيّنّا بيانا بليغ الوضوح"[17].

فالهدف من ذلك أن يتذكر الناس، فلا معنى لضرب المثل للناس أن يتذكروا إلا أن يفهموا، ولا يفهموا مراده إلا إذا تكلم بلغتهم، وهذا شيء بديهي.

3. قال تعالى: "بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ"[18].

قيل في تفسير الآية: "فإذا ثبت أنّ القرآن نزل بلغة العرب، وخوطب المكلَّفون في معانيه على اللسان، وجب العمل بما تضمّنه على مفهوم كلام العرب دون غيرهم"[19] .

إن العربي الفصيح الواضح، وهو البيّن، بمعنى لم ننزله غامض مبهم لا يكتشفه إلا الأوحدين من الناس.

4. قال تعالى: "وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ"[20].

أي: "لم يرسل فيما مضى من الأزمان، رسولا إلا بلغة قومه، حتى إذا بين لهم فهموا عنه ، ولا يحتاجون إلى من يترجمه عنه ، وقد أرسل الله تعالى نبينا محمدا (ص) إلى الخلق كافة بلسان قومه"[21].

فإذا لم يكن نظام الفهم والتفهيم بينهم هو عبارة عن نظام اللغة العرفية، كيف يتحقق ذلك المعنى.

ثانيا: الدليل العقلي.

لو لم تكن لغة العرب لغة عرفية يمكن لعامة العرب أن يفهموها لما كان هناك معنى للإعجاز اللغوي والبلاغي في القرآن الكريم، واصلاً لم يكن هناك معنى للتحدي الذي أطلقه القرآن الكريم في مواجهة المشركين آنذاك[22].

وحقيقة الأمر لو قدمنا كلام عربي لا يفهمه العرب، ثم تحديناهم بمثله لسخروا منه، فلا بد من افتراض أن النص الذي قدمه القرآن كان غير مختلف عن النصوص العربية، من حيث إفادته على بيان المعاني، لذا أخذوه وفهموه وطولبوا أن يأتوا بمثله، وقروا بالعجز.

الْمَبحث الثَّاني: أَهَمِ الاتجاهات الَّتِي تُؤَمِنُ بتخطِي اللُّغَةَ الْعُرْفِيَّةَ إِلَى أَفُقْ آخِرَ

الاتجاه الْأَوَّلَ: الاتجاه الرَّمْزِيَّ.

عرف الراغب في المفردات الرَّمْزُ بأنه: "إشارة بالشّفة، والصّوت الخفيّ، والغمز بالحاجب، وعبّر عن كلّ كلام كإشارة بالرّمز، كما عبّر عن الشّكاية بالغمز"[23].

اتجاه يقول بأن الله تعالى حيث كان غير متناهي، حيث كان القرآن الكريم عبارة عن علمه اللامتناهي، لا يمكن أن تكون دلالة كلامه مؤطرة داخل نطاق المدلول الحقيقي أو المطابقي للكلام، فالله لا يمكن أن يوصف بالعجز، ولكن اللغة العربية يمكن أن توصف بالعجز مثل أية لغة بشرية أخرى، والقرآن الذي اختار هذه اللغة أداة للتعبير عن العالم العظيم، لا بدّ أن يحتاج إلى وحدة الرمز لتغطية العجز البشري في إيجاد أقرب الوسائل وأكثرها فعالية في أداء الحقائق عبر الألفاظ، وهذا هو الرمز الذي عُرف أن القرآن يستخدمه لكي يظل كما يقول الفقهاء: صالحاً لكل زمان ومكان[24].

وهذا معناه أن النصوص الدينية يجب أن تكون مفتوحة على نظام رمزي، لا ينبغي أن ننظر إلى الدليل المطابقي وأمثاله في القرآن الكريم، وإنما للمعاني التي تقف خلف السطور، خلف تلك الرموز التي يرسلها لنا القرآن الكريم، يجب أن نتخطى الكلام لما خلفه، فليس المراد من الآيات القرآنية ما تعطيه الظواهر، ما تعطيه اللغة، وإنما هناك شيء آخر أعمق من ذلك بكثير علينا أن نفتش عليه فيه على طريقة الرموز، وليس على طريقة الكلام العادي، وهذا معناه أن طريقة التفسير المباشرة مثلا في قوله تعالى: "قل هو الله أحد" بمعنى أن الله واحد هذه طريقة التفسير المباشرة ليست صحيحة في التعامل مع النص القرآني، إذ علينا أن نستخدم طريقة تفسير منحنية إذا صح التعبير؛ لأن الخيال يطغى في الرمزية أو لأن الابتعاد عن الوضوح يطغى في الرمزية، فيصبح الكلام الالهي عند هؤلاء سلسلة رموز واشارات لا تعبر عن طريقة العقل في الدلالة عندما يدلل في أفكاره، ولا تعبر في الوقت نفسه عن الطريقة المتعارفة في تبيين المشاعر، إذ القرآن الكريم يعتمد الرمزية؛ لأن طبيعة أفكاره وطبيعة معانيه وطبيعة مقاصده لا يمكن لوضوح الكلام أن يبينها، فواضح الكلام عاجز عن إيصالها، فهذا هو السبب تم اللجوء إلى الترميز عبر قوة تأثير عالية، عليّ أن استنطق تلك الاشارات وهذه الرموز لكي أفهم المقصود.

لذلك ما طرحه تيليش حول رمزية لغة الدين "أنّ بنية الاعتقادات الدينية تعتمد على الإيمان الديني الشخصي وليس على صدق هذه الاعتقادات؛ ويعتقد تيليش – الذي يعرض الإيمان الديني على شكل "همّ نهائي" – أنّ لغة الدين هي لغة الرموز، رافضاً كلّ معيار في إثبات المعطيات الدينية"[25]، فالمفاهيم الدينية في نظرية تيليش الرمزية هي عبارة عن مجرد رموز تتكئ على أذهاننا وتربطنا بالأمر القدسي، من دون أن تكون لها أيّ جذور واقعية؛ وبحسب هذه الرؤية، لا يُمكن حتى الحديث عن الوجود الخارجي لله إلى جانب وجود بقية الموجودات[26].

ففي البحث عن القضايا الدينية، ينبغي ألّا نقيسها على مثيلاتها في العلوم البشرية، ونسعى إلى ملاحظة انطباقها (أو عدم انطباقها) على الواقع الخارجي، بحيث لا يكون حتى الإيمان بالمسيح مرتبطاً بالوجود الواقعي لعيسى الناصري بشخصه[27]؛ فليس بوسع كل من الحقيقتين العلمية والتاريخية نفي (أو إثبات) حقيقة الإيمان، مثلما أنّ حقيقة الإيمان ليس بوسعها أيضاً نفي (أو إثبات) الحقيقتين العلمية والتاريخية.

ويعتقد تيليش أنّ الرموز تُشكّل بالنسبة إلينا أرضية للتجربة الدينية، لكنها لا تدل على أي واقعية إلهية.

ويعتمد هذا الرأي على المبنى الذي يقول "إنّه لا توجد بين القضايا الرمزية أيّ علاقة منطقية نظير التناقض والنفي والاستلزام، فلا يمكننا بالتالي البحث عن صدقها وكذبها الحقيقي، وعليه من شأن القضايا المتناقضة – من قبيل "الله محبة" و"الله كره" – أن تكون ذات مغزى أو صادقة مادام الإنسان في مواجهة للأمر القدسي"[28].

ويفهم مما تقدم أن المعطيات الموجودة في الكتاب المقدس لا تستطيع أن تتوالم مع تطور العلوم الانسانية والطبيعية، لذا تم اللجوء إلى نظرية الرمزية في لغة الدين ولغة الكتاب المقدس، ليتخطى الملول المطابقي وأمثاله في الكلام، وبهذه الطريقة يفض الاشتباك في سياق هذا التفكير الرمزي الذي يحرر المفسر من الدلالات اللغوية المطابقية، فليست هذه الكتب ومن ضمنها القرآن الكريم كتب وقائع وأحداث حتى نطابقها مع الواقع، هي لغة ارشاد روحي، هي لغة وصايا وتعاليم، وليست لغة معلومات وأخبار أو ما شابه ذلك.

هذه الكتب أشبه بعمل مسرحي قصصي الحكاية التي فيها لا تعبر عن واقع، حتى أبحث عن هذا الواقع وأقوم بمطابقته لاكتشف الصدق من الكذب، هي فرض صور، هي قصص بهدف تربوي لإيصال رسائل أخلاقية إلى المتلقي، وهذا ما فتح الطريق على نظرية (**التمثيل والتخيل في القصص القرآني**) ويريد بها ما يحتوي

المثال والفرض والخيال، أي: "العمل الأدبيّ الذي يكون نتيجة تخيّل القاص لحوادث وقعت من بطلٍ لا وجود له، أو من بطلٍ له وجود ولكن الأحداث الّتي ألمّت به لم تقع أصلاً "[29]، وحينئذٍ "لا يلزم أن تكون أحداثه من الحقائق، فقد يكتفى فيه بالفرضيّات والمتخيّلات"[30]، بل المتعيّن لديه أنّها من نسج الخيال: "لن نجد من يعارض في وجود القصّة التّمثيليّة في القرآن الكريم وأنّها وليدة الخيال"[31].

ومن أمثلة هذا اللون الّتي ذكرها قصّة نبيّ الله عزير(ع): ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...﴾[32] .

ويعتبر أن هذه القصص مجرد خيال، وإنما يقدمها الخيال لغرض دعوي ديني واخلاقي، فهذه المدرسة بكل تشعباتها في الوسط الديني كلها تحررت من اللغة، وتعبر هذا المكان إلى مكان آخر.

هذا الإتجاه الرمزي على امتداداته من جهة هو يقول ضع كل المداليل المطابقية على حدة وابحث ما وراء النص، فالنص ليس سوى معبر، أي كي تتأمل وتغوص فيما وراء النص هناك إشارة تأتيك وعليك أن تلاحق الاشارة لتصل إلى الهداية.

منهج الرمزية في التفكير منسجم مع تخطي لغة العرف، أو ربما الاطاحة به تماماً، وأراد الفصل أو فض الاشتباك بين النصوص الدينية القرآنية، وبين ما تعطيه العلوم الطبيعية والتاريخية وغيرها.

الْإِتِّجَاهُ الثاني: الْإِتِّجَاهُ الْبَاطِنِيُّ والتأويلي.

هذا الاتجاه يميل في بعض أفكاره إلى ما يشبه الرمزية والترميز، كما يتضح عند الكثير من باطني الاسماعيلية الذين يعتقدون بأن الألفاظ الواردة في القرآن الكريم لا تحمل على معانيه، وكثير من هذه الكلمات الموجودة في القرآن ليست إلا شخصية فالصلاة شخص، الصوم شخص، الحج شخص، الزنا شخص، وهؤلاء إما أهل البيت (عليهم السلام) أو خصومهم، ويرى (ابو حاتم الرازي) أحد أعلام الإسماعيلية: "إن ما ذكر في القرآن الكريم وكتب الانبياء السابقون، تبين أن اكثر كلام الانبياء (عليهم السلام) ورسومهم هي امثال تختلف في ظاهرها عن المعنى المراد به ومن جهل هذا المعنى وحكم على ظاهر اللفظ بكلامهم، ولم يعرف ما يقصد به فقد ضل طريق الهدى، ومن تأمل في ما يدعون إليه وسأل عن معنى الامثال كان مصيباً وعادلاً وهادياً ومنصفا"[33].

لقد انطلق الاسماعيلية في وجوب التأويل الباطني من المثل والمثول (الظاهر والباطن)، والتي تعد المحور الذي يرتكز عليه التأويل الباطني عند الاسماعيلية بصورة عامة، اذ أنهم يعتقدون بان لكل شيء ظاهر وباطن، والظاهر يسمى (مثلاً) والباطن يسمى (ممثولاً) فما يظهر من الامور في الحياة يفهمها العامة، وفي الوقت نفسه هناك تأويل لأي أمر من هذه الأمور لا يعلمه إلا الائمة[34]، وقد بين الله تعالى ذلك في كتابه الكريم بقوله: "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[35] ، وقوله تعالى: "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ"[36] ، "يبين أن الله يضرب الامثال جملاً وتفصيلاً ويبين بها ممثولها وإن صغر هذا المثال، وجعل ظاهر القرآن الكريم دليلاً على باطنه، والجهر به هو السبيل الى معرفة سره لتتضح الحجة لمن اطاع ما امر به، وتنقطع الحجة عن من خالفه وخالف إمام عصره وعصاه"[37].

ويرى الاسماعيليون أن حكمة الله تعالى اقتضت بان يكون جميع ما خلقه من خلقه، محسوساً ومعقولاً ومثلاً وممثولاً، وان اهل بيت النبوة (عليهم السلام) هم من يعرفون أسرار الشريعة، وهم من يخرجون امثلة هذه من هذا وامثلة هذا من هذه ويبينوه لعامة الناس، وإن السبيل إلى تعريف ما لا يمكن أن يحس ويرى.

وبعض هذه الاتجاهات التأويلية ترى أن الالفاظ لا تمثل سوى الطريق للمعاني الظاهرية فقط، وإن هناك في القرآن الكريم معاني باطنية أعمق لا تدرك بالألفاظ، فهذه المعاني يدركها السالك الواصل، وتدرك بالسلوك الروحي إلى الله تعالى؛ لأن القرآن في المدرسة التأويلية العرفانية ليس إلا العلم الالهي، وهذا العلم تنزل في رتب الوجود، ففهم القرآن من خلال ما هو موجود في الكتب يعطيك مستوى من القرآن الكريم، ولكي تفهم المستوى الأعلى من القرآن أترك اللغة، ينقل الشيخ الصدوق في المعاني رواية في تفسير حروف الهجاء، فعن الحسين بن علي (ع) قال : "جاء يهودي إلى النبي (ص) وعنده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له : ما الفائدة في حروف الهجاء ؟ فقال رسول الله (ص) لعلي عليه السلام : أجبه ، وقال : اللهم وفقه وسدده، فقال علي بن أبي طالب (ع) : ما من حرف إلا وهو اسم من أسماء الله عز وجل"[38].

إذا تصبح هذه الحروف مجرد رموز عليك أن تعبر إلى ما ورائها، ومن هنا ظهرت فكرة مهمة في الداخل الاسلامي تبرر هذا التصوير الجديد، وهي أن للقرآن ظاهر وباطن، فيقبلون بتفسير القرآن بالظاهر، ولكن لا يعتبرونه الحكم النهائي، أما لغة القرآن

فتدرك بلغة الباطن، فلا يوجد ترابط عضوي بينها وبين الدلالة الظاهرة للنص، إنما هي تنتمي لعالم آخر وليَّ أن أدركه بعلوم أخرى أو إتصال آخر، "فما من شيء من الموجودات الكونية إلا وله ظاهر وباطن فظاهره قشر ظلماني وباطنه لب نوراني على اختلاف الأشياء في الشرافة والخسة فالمنسوب إلى الله من كل شيء لبه ولطيفه وباطنه النوراني لا قشره وظاهره الكدر الظلماني؛ لأن الظلمة والكدورة منشؤهما العدم والنقصان"[39]، بينما هناك آخرون قالوا بوجود بطون، ولكن نعبرها من خلال الظواهر[40].

إذا الاتجاه الأول (الاتجاه الرمزي)، فيقف في مقابل أنصار نظرية اللغة وتجلياته المتعددة، أما الإتجاه الثاني التأويلي الباطني نسبة إلى مذاهب انتمت إلى التفكير الباطني كالإسماعيلية والغلاة، والتأويل الصوفي والعرفاني.

الْإِتِّجَاهُ الثَّالِثُ: الْإِتِّجَاهُ الْإِخْبَارِيُّ(النَّصِّيَّ).

الاتجاه الاخباري في بعض منطلقاته يلتقي مع فكرة أن لغة القرآن ليست باللغة التي نعرفها، ولا يمكن أن استخدم هذه اللغة لكي أفهم مراد الله، يذهب على رأس هذا الرأي الأمين الاسترابادي.

في قراءة لمنهج بعض الاخباريين يتضح أن فهم القرآن الكريم ممكن لكن لا بالمباشرة بمعنى العلاقة الثنائية بينك وبين القرآن الكريم، فليس هناك خط ينطلق منك ويصل إلى القرآن وتستنتج أنت من خلاله ما يريده القرآن، العلاقة أشبه بالمثلث بمعنى أنك تفهم القرآن الكريم من خلال وسيط، وهذا الوسيط هو الذي لديه قدرة على الاتصال المباشر بالقرآن وفهمه؛ لأن لغة القرآن معقدة سامية لا يتسنى التعامل معها باللغة التي تتعامل بها في تفسير النصوص، هناك اشخاص خاصون يمكنهم إدراك مراد الله تعالى، وهم النبي وأهل البيت (عليهم السلام)، وهذا يفترض أن لا ترجع مباشرة إليه.

إذاً حتى أفهم القرآن لابد أن أستعين بالأثر - رواية النبي وأهل البيت (عليهم السلام) – فهم قادرين على فهم لغة القرآن، بل أن الاسترآبادي قال: " "مذهب الاخباريين أن القرآن في الأكثر ورد على وجه التعمية بالنسبة إلى اذهان الرعية، وكذلك كثير من السنن النبوية، وأنه لا سبيل إلا السماع من الصادقين (عليهم السلام) ، وأنه لا يجوز استنباط الاحكام النظرية من ظواهر كتاب الله، ولا ظواهر السنن النبوية ما لم يعلم أحوالها من جهة أهل الذكر (عليهم السلام)، بل يجب التوقف والاحتياط فيهما"[41]، وذكر في مكان آخر "إن من المعلوم أن حال الكتاب والحديث النبوي لا يعلم إلا من جهتهم (عليهم السلام)، فتعين الانحصار في أحاديثهم"[42].

ويرى الاسترآبادي أن التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) متفق عليه، أما الرجوع إلى القرآن مسألة خلافية، فنرجع إلى ما هو متفق عليه، وقال: "كل مرجع غير أهل البيت (عليهم السلام) ورواياتهم - فيه اختلاف"[43]، ويستدل بمجموعة أدلة على ذلك منها:

1. من الأُصول التي ذهب إليها الإخباريّون هو حجية الروايات مطلقا، إذ جعلوا البحث عن حال الراوي من حيث الوثاقة وعدمها ، أمراً لا طائل تحته ، كما يكون تقسيم الاخبار من جانب الأصوليّين إلى الأَقسام الأَربعة المعروفة ، على طرف النقيض من هذا الأَصل.
2. إنكار حجّيّة العقل في مجال فهم النصوص، وهو أهم ركن التجأ اليه الأَخباريّين في مشروعم لفهم النص القرآني أنهم طعنوا بالعقل الأصوليّ الذي ذهب اصحابه بحجّيّتة في مجال الاستنباط، واطلق عليه محمّد أمين الأسترآبادي الاعتماد على الدليل الظنّي في أحكامه تعالى.
3. حديث الثقلين الذي يفيد أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، إذ لا يمكننا الأخذ بالقرآن دون الرجوع إلى أهل البيت (عليهم السلام)، وأيضا هناك روايات مفادها (لا يعلم القرآن إلا من خوطب به) وهم الذين نزل فيهم القرآن، وأنهم هم المعنيون بمن خوطبوا بالقرآن.

وهذه الأدلة المتقدمة تجعل من القرآن أشبه بالشيء الغامض الذي يجب أن نبتعد عن محاولة فهمه، هو خارج إطار النشاطات اللغوية التفسيرية، العلاقة فقط بأهل البيت (عليهم السلام)، وعلاقتهم تمتد إلى القرآن، ثم نأخذ المعنى القرآني فيكتمل المثلث.

هذه النظرية الاخبارية قد تلتقي أحيانا بعض الشيء في بعض أصولها المعرفية مع الاتجاهات الباطنية؛ لأنها ترى أن اللغة العرفية في التعامل نع القرآن الكريم لا يكفي، بل قد يوقع في اخطاء، لابد من سلوك سبيل آخر لإدراك حقائق القرآن مع الفارق أن الاتجاهات الصوفية العرفانية تعتبر السبيل الآخر هو السلوك الروحي إلى الله، بينما الاتجاه الاخباري يحصر الطريق لمعرفة القرآن بما قاله النبي وأهل البيت (عليهم السلام)، أو بعضهم بما قاله أهل البيت (ع) خاصة.

لذلك أغلب المصادر التفسيرية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر روائية؛ لأنهم لا يعتبرون مجالاً لفهم القرآن إلا من خلال النص الحديثي.

الْإِتِّجَاهُ الرَّابِعُ: الْإِتِّجَاهُ التَّلْفِيقِيُّ بَيْنَ اللُّغَةِ الْعُرْفِيَّةِ وَاللُّغَةِ الْبَاطِنِيَّةِ.

أنصار هذا الإتجاه وعلينا أن نتوقف عن إدعاء فهمه، من المتأخرين الذين انتصروا لهذا الاتجاه في بعض بحوثه الشيخ محمد تقي اليزدي، فهو تيار يستخدم اللغة المركبة[44]، وهذا التنوع في الاسلوب يضع هؤلاء لاكتشاف وجهان أن هناك اسلوب عرفي واسلوب غير عرفي، ويمكن ملاحظته بـ:

1. طبيعة الموضوع.

إن القرآن الكريم عندما يتكلم في الفقه والقانون والسلم والحرب، والقضايا الاجتماعية هنا استخدم معه لغة عرفية، لكن لما يجيء ويتكلم عن أسماء أو صفات إلهية مثلاً أدخل في مكان معقد غامض، فنحتاج إلى فتح مجال مفاده أن القرآن الكريم لا يتكلم بطريقة التي يتكلم فيها في الفقه، وأن هؤلاء شعروا بأن طبيعة الموضوع تفرض بذاتها تنوعاً في البيان، ويجب أن تتخطى قواعد الدلالة التي افهمها بطريقة مختلفة تماماً.

2. جهة التركيب.

أي أنه يريد أن يوصل شيء، فبعض التراكيب تعطي إيحاءات بوجود ترميز مثل قوله تعالى: " لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[45]، هنا يوجد ترميز معين، وعلى المفسر أن يهيأ نفسه أن لا يشتغل بطريقة الفهم العرفي؛ لأنه سيقع في خطأ، عليه أن يبحث عن أداء آخر يوجد فيه حل، هذه النظرية توجد بعض الاشارات لها في كاب الميزان: " ويستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله ﷺ خفية عنا لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطا خاصا"[46] .

كأنما بعض الآيات فقط للخواص المتعمقين، وربما يستنبط مما تقدم بوجود لغة رمزية بين جماعات خاصين، وبين الله، هم يلتقطون الاشارات الموجودة في النص، فينفتح له الطريق ويعبرون.

الْإِتِّجَاهُ الْخَامِسُ: اِتِّجَاهُ لُغَةِ الْقُرْآنِ الْخَاصَّةَ.

للقرآن لغة خاصة تميزه عن سائر اللغات؛ لأنه إلهي سماوي يستوحى من بعض كلمات الشيخ محمد هادي معرفة والشيخ الطهراني الميل إلى فكرة من هذا القبيل، أن للقرآن لغة خاصة لا تشبه أي لغة أخرى، بما في ذلك لغات العامة والخاصة، وقد يستوحى أن الدافع من وراء طرح فكرة أن للقرآن لغة خاصة، "هو وجود تنوع في القرآن تارة يستفيد منه عامي، وتارة يستفيد منه فيلسوف، فلا يمكن للغة نعرفها أن تحوي البسيط والمعقد معاً، ولا يمكن للغة نعرفها أن تحوي الظاهر والباطن معاً، تلبي كل الحاجات الدينية المعرفية على الامتداد الزماني والمكاني، الفيلسوف يجد فيها بغيته، الأديب يجد بغيته، الفقيه يجد فيها مطلوبه، هذه ليست إلا لغة خاصة مبنية على بناء خاص يختلف عن الجميع"[47].

تحليل هذه النظرية يتضح أن هناك ارتباط عضوي بينها وبين نظرية البطون، وكذلك ارتباط بينها وبين نظرية أن القرآن فيه جميع العلوم، وهذا فيه لوازم من ضمنها، لا يمكن أن تكون للغة عادية إحتواء هكذا كم من علوم في صفحات معدودة، مما ينتج نظرية البطون.

حين مراجعة العلامة الطباطبائي يتبين أنه يتكلم عن توليفة عناصر، واشتمال القرآن على حقائق متعالية عن الحس والمادة، لا يمكن صهرها في الألفاظ، ولا يمكن صهرها في البيان العقلائي، القرآن مجرد وجود بسيط في مرحلة الغيب قبل التنزل المادي، إذ يرفض الطباطبائي قياس القرآن بكلام الناس، فلا يقبل التعامل مع القرآن على طريقة البيانات العرفية المتساهلة بحسب تعبيره، والواقعة فيما بين الناس[48]، ولهذا هو يعتمد نهج تفسير القرآن بالقرآن؛ لأنك لا يمكن أن تفهمه إلا به، ولا يُفهم من خارجه، وإن هذا أفضل فهم له.

وبهذا يمكن القول أن العلامة الطباطبائي أيضاً جمع بين اللغة العرفية واللغة الباطنية، بإعتقاده بنظرية البطون، وباعتقاده واشاراته إلى شيء من فكرة الرمزية، أو على الأقل احتمالاً كما ينقل عنه في قضية هبوط آدم وحواء (عليهم السلام) إلى الأرض[49]، ومخاطبة الله للسموات والأرض أن تأتيا طوعا أو كرها.

هذه الإتجاهات الخمس تعبر عن الاتجاهات المعارضة للاتجاه المخلص تماماً للغة بمفهومها البشري، أو بدلالاتها العرفية، إذ أن أغلب التيارات تبني مشروعها على فكرة أن للقرآن بطون خارج نطاق الدلالات اللغوية.

الاستنتاجات

1. يفهم من بعض النظريات أن للقرآن لغة خاصة تميزه عن سائر اللغات؛ لأنه إلهي سماوي وما دام كذلك لابد أن يرسل من يقوم بتوضيح وتفهيم هذا الكتاب لما له من مضامين عالية الدقة.
2. من يذهب إلى أن القرآن له لغته فهو ليس لغة من نوع واحد، بل هو تركيب متنوع، بمعنى أن القرآن مرة يعتمد لغة عرفية، وفي مواضع أخر يعتمد لغة ذات نمط رمزي إشاري باطني يحتاج مسالك أخرى لفهمه، يترك اللغة ويذهب إلى لغة خاصة به.
3. منهج الرمزية في التفكير منسجم مع تخطي لغة العرف، أو ربما الاطاحة به تماماً، وأراد الفصل أو فض الاشتباك بين النصوص الدينية القرآنية، وبين ما تعطيه العلوم الطبيعية والتاريخية وغيرها.
4. يرى اصحاب النظرية العرفية أن القرآن والسنة جاء وفق اللغة العرفية، بمعنى خاطب الناس بنفس اللغة الاجتماعية العامة التي يخاطب الناس بعضهم بعضاً بها، وليس هنا استخدام للغة مختلفة، وليس هناك استخدام للغة خواص، والمرجع هو اللغة العربية بمنظومتها الهائلة في البيان والتبيّن، والتفاهم والتفهيم.

الهوامش

([1]) ومن تلك التفاسير: تفسير غريب القرآن الكريم من تأليف فخر الدين الطريحي، وتفسير معاني القرآن من تاليف يحيى الدليمي المعروف بالفرّاء، وتفسير مفردات ألفاظ القرآن (مفردات الراغب) من تأليف الراغب الأصفهاني، وتفسير الوجوه والنظائر في القرآن من تأليف الحسين بن محمد الدامغاني.

([2]) على سبيل المثال: التبيان، الطوسي، مجمع البيان، الطبرسي، الكشاف، الزمخشري، تفسير الرازي، تفسير القرطبي، تفسير الثعلبي.

([3]) المغني ، القاضي عبد الجبار: 4 / 99.

([4]) ظ: المعالم الجديدة للأصول، محمد باقر الصدر: 112، ظ: النظام القرآني، عالم سبيط النيلي: 5.

وإلى هذا يشير أيضا السيد كاظم الحائري بقوله: "لو سلمنا وجود نكتة الأقوائية أو المفسرية دائما في القرائن قلنا : إن المفسرية حينما تكون بمثل (أي) و (أعني) تنحفظ طبعا في حال الانفصال ، أما حينما تكون بافتراض نظام لغوي يقتضي المفسرية كما قد يدعى في العام والخاص ، فهذا النظام كما يمكن فرضه عاما يشمل فرض الانفصال كذلك يمكن فرضه خاصا بفرض الاتصال ، وقد يختلف الأمر باختلاف القرائن ، فتجب دراسة كل قرينة بحد ذاتها ، ولا يمكن أن نستفيد شيئا من هذه القاعدة الميرزائية ، وحتى لو استقصينا كل القرائن فوجدنا نكاتها موجودة في حال الانفصال ، فنحن لم نستفد شيئا من هذه القاعدة ، وإنما استفدنا من استقصائنا للقرائن . القضاء في الفقه الاسلامي، السيد كاظم الحائري: 286.

([5]) وقوع المجاز في الأدلة الشرعية دراسة أصولية، الباحثة جميلة شاكر علي: 18، رسالة ماجستير في جامعة الملك خالد، كلية التربية للبنات ، 1429-1430هـ.

([6]) ظ: التفسير الحديث، محمد عزة دروزة: 147/1.

([7]) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي: 263.

([8]) طور الاستخلاف، عالم سبيط النيلي: 12/1.

([9]) تفسير الصراط المستقيم، السيد حسين البرجوردي: 99/2.

([10]) ظ: بحوث في علم الأصول، تقرير بحث السيد الصدر للسيد محمود الشاهرودي: 55/3.

([11]) ظ: مباحث الأصول، تقرير بحث السيد الصدر للسيد كاظم الحائري: 247/2.

([12]) سورة آل عمران: آية138.

([13]) سورة النساء : آية 82

([14]) سورة محمد : آية 24

([15]) التبيان، الطوسي: 4/1.

([16]) سورة الزمر: آية 27.

([17]) زبدة التفاسير، الكاشاني: 76/6.

([18]) سورة الشعراء : 195 .

([19]) تفسير القرآن المجيد، الشيخ المفيد: 56.

([20]) سورة إبراهيم : 4 .

([21]) مجمع البيان، الطبرسي: 58/6.

([22]) ظ: شرح العروة الوثقى/ التقليد(موسوعة الامام الخوئي) تقرير بحث السيد الخوئي للغروي: 35/1.

([23]) المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت: ص366.

([24]) ظ: الرمز في القرآن "الدراسة – الحوارات – الردود"، الصادق النيهوم، مؤسسة الانتشار العربي - بيروت: ص108-109.

([25]) منطق الخطاب القرآني "دراسات في لغة القرآن"، محمد باقر سعيدي روشن، ترجمة: رضا شمس الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ـ بيروت: ص131.

([26]) راهنماى الهيات، بروتستان هوردون: ص149-150.

([27]) شجاعت بودن، تيليش: ص104.

([28]) ترجمة: رضا شمس الدين، منطق الخطاب القرآني "دراسات في لغة القرآن"، محمد باقر سعيدي روشن، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ـ بيروت: ص132.

([29]) الفنّ القصصيّ في القرآن الكريم، محمّد أحمد خلف الله: 198.

([30]) م.ن: 153.

([31]) الفنّ القصصيّ في القرآن الكريم، محمّد أحمد خلف الله:198.

([32]) سورة البقرة: آية259.

([33]) اعلام النبوة ، ابو حاتم الرازي، ط١ ، دار الساقي بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتحديث الفكري ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص٨٩.

([34]) جعفر السبحاني ، المذاهب الاسلامية ، ط٢ ، دار الولاء ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص٢٩٢.

([35]) سورة الحشر: آية 21.

([36]) سورة الروم: آية 53.

([37]) ثقة الامام علم الاسلام ، المجالس المستنصرية ، تحقيق : محمد كامل حسين ، ط١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د.ت) ، ص٩٩.

([38]) معاني الأخبار، الصدوق: 44.

([39]) اسرار الآيات، صدر الدين الشيرازي: 80.

([40]) ظ: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: 324/19.

([41]) الفوائد المدنية، الاسترابادي : ص47.

([42]) م.ن: ص17.

([43]) الفوائد المدنية، الاسترابادي: 129.

([44]) ظ: تعدد القراءات، الشيخ مصباح اليزدي، ص11- 12.

([45]) سورة الحشر: آية21.

([46]) الميزان، الطباطبائي: 9/18.

([47]) التفسير والمفسِّرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفت: 18/1.

([48]) ظ: الميزان، العلامة الطباطبائي: 57/3-58.

([49]) وبالجملة لهما معنيان مختلفان ، لكنك بالرجوع إلى ما مر من أمر الميثاق تعرف أن المعنى واحد وان آدم عليه السلام أراد أن يجمع بين التمتع بالجنة وهو مقام القرب من الله وفيها الميثاق ان لا يتوجه إلى غيره تعالى وبين الشجرة المنهية التي فيها تعب التعلق بالدنيا فلم يتيسر له الجمع بينهما فهبط إلى الأرض ونسي الميثاق فلم يجتمع له الأمران وهو منزلة النبي ﷺ ، ثم هداه الله بالاجتباء ونزعه بالتوبة من الدنيا ، وألحقه بما كان نسيه من الميثاق فافهم . الميزان، الطبطبائي: 144/1.

المصادر

- استرابادي، محمد امين، الفوائد المدنية، ط 2 مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، 1426هـ.
- ثقة الامام علم الاسلام، المجالس المستنصرية، تح محمد كامل حسين، ط١ دار الفكر العربي القاهرة ، (د.ت).
- خلف الله محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، قسم: علوم القرآن الكريم والسنة النبوية،
- ط1 مؤسسة الإنتشار العربي، 1997.
- الخوئي، ابو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ط 8 دار انوار الهدى، 1981 م.
- دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث، ط1 دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ١٣٨٣ هـ.
- الذهبي، محمد السيد حسين ، التفسير والمفسرون. ط3 مكتبة وهبة، القاهرة، 1898 م.
- الرازي، ابو حاتم، اعلام النبوة، ط١ دار الساقي بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتحديث الفكري، بيروت، 2003 م.
- روشن، محمد باقر سعيدي، منطق الخطاب القرآني - دراسات في لغة القرآن ، ترجمة: رضا شمس الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي بيروت ، 2004 م.
- السبحاني، جعفر، المذاهب الاسلامية، ط٢ دار الولاء بيروت، ٢٠٠٥م.
- الشيرازي، ناصر مكارم، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط1 مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، 1426م.
- الصادق، النيهوم، الرمز في القرآن الدراسة – الحوارات – الردود، ط1 مؤسسة الانتشار العربي ـ بيروت ، 1998م.
- الطباطبائي، محمد حسين ، الميزان في تفسير القرآن، ط1 منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات 1997م.
- معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ط2 الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية، 1425هـ.